



Baya Abidi. - *Bārdū: as-swānī wa al-quṣūr khilāl al-fatra al-Husayniya (1705-1957)* (Tunis: Manshūrāt as-Sabīl/ Majmā' al-Atrash linashri al-Kitāb al-mukhtaṣ wa tawzī'ihī, 2019), 517p.

بيّة العبيدي.- باردو: السّواني والقصور خلال الفترة الحسينية (1705-1957) (تونس: منشورات السّيبيل/مجمع الأطرش لنشر الكتاب المختصّ وتوزيعه، 2019)، 517 ص.

اعتمدت الباحثة بيّة العبيدي في عملها الصادر

حديثاً، بعنوان: باردو: السّواني والقصور خلال الفترة

الحسينية (1705-1957)، على مدوّنة مصدرية متينة تتكوّن أساساً من دفاتر محفوظة بالأرشيف الوطني التونسي، وملفات الرسوم العقارية بأرشيف إدارة الملكية العقارية بتونس، ووثائق الأوقاف المرادية، ومصادر منشورة مثل كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار، وإتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان لأحمد بن أبي الضياف. هذا فضلاً عن مجموعة متنوّعة من المراجع العربية والأجنبية. ويندرج الكتاب ضمن التاريخ العقاري وتاريخ العمارة لمدينة تونس في الفترة الحديثة والمعاصرة، بداية من تأسيس الدولة الحسينية (1705) وصولاً إلى إعلان الجمهورية التونسية (1956).

تتكوّن الدراسة من قسمين أساسيين، يحمل القسم الأوّل عنوان "باردو: تطوّر خصائص المجال الضحوي خلال الفترة العثمانية"، أما القسم الثاني فقد وُسم بعنوان "الخصائص المعمارية لقصور جهة باردو خلال الفترة الحسينية"، إلى جانب مقدّمة عامّة وخاتمة. وقد أردفت الباحثة دراستها بمجموعة من الفهارس، واحد خاص بالأعلام، وآخر بالأماكن والمعالم وثالث خاص بالصور والأشكال. وفي متن البحث، قامت بيّة العبيدي بعرض وتحقيق 24 رسماً عقاريّاً وأحباساً، تشر لأول مرة، تهتمّ بالرهانات العقارية في جهة باردو. وقد ركّزت المؤلّفة في عملها على دراسة المحليّ من خلال الاعتناء بجهة باردو باعتبارها من أبرز ضواحي مدينة تونس، والتي تحوّلت إلى مقرّ السلطة والنفوذ في الإيالة التونسية خلال الفترة العثمانية وخاصة مع العائلة الحسينية. ومن هنا، احتلّ قصر باردو لبّ الدراسة بحكم وظيفته السياسية وطبيعة قاطنيه. وراوحت الباحثة بين العمل الأرشيفي والمدوّنة الخرائطية والبحث في المصادر المنشورة والعمل الميداني،

ثم سعت إلى المقارنة بين كلّ المعطيات المتحصّل عليها من أجل تفهّم واقع جهة باردو من خلال سيرورتها التاريخية والعمرانية.

ويرتكز العمل على مجموعة من المصطلحات المفاتيح أهمّها مصطلحي "السّواني" وجهة "باردو". وتنتمي منطقة باردو مجاليًا إلى ظهير منطقة تونس، وهي عبارة عن سهل فسيح خصب يقع في الضاحية الغربيّة من المدينة تتميّز خاصة بأشجارها المثمرة، وبدأ تعمير هذه المنطقة بداية من عهد المستنصر بالله (1249م-1277م) أحد أمراء الدولة الحفصيّة. أمّا "السّواني"، فتمثل أراضي فلاحية سقوية مخصّصة لإنتاج الخضر والغلال، تحتوي معظمها على منشآت مائية مثل الآبار والجوابي والمخازن. وفضلا عن دورها الفلاحي، تحتضن السّواني عدّة مبانٍ مثل الأبراج ومخازن الحبوب وتعبر أراضيها مسالك وطرقا.

أشارت الباحثة في القسم الأول من عملها، والموسوم بـ"باردو: تطوّر خصائص المجال الضحوي خلال الفترة العثمانية" إلى أنّ سانية باردو أحدثت في عهد أبي فارس عبد العزيز (1394م-1434م) بغية تعمير ظهير مدينة تونس وسهولها وأريافها المحيطة بها. وقد أحاطت بأراضي باردو عدة سواني مثل سانية رأس الطابية. وظهرت سانية باردو خلال الفترة الحفصيّة كفضاء لنزهة العائلة الحاكمة وإقامة ظرفيّة خاصة زمن الطاعون، حيث لعبت دور المحجر الصحيّ. وقد أحاطت بالقصور الملكية في سانية باردو بساتين وحقول عديدة، كما أوردت بعض المصادر وجود زاوية خدمة لعابري السبيل. وقد عمّرت هذه السانية مع الحفصيين بمجموعة من المرافق مثل ملعب لركوب الخيل وبناء الحنايا لجلب الماء. ولم تُتخذ باردو مقرًا لسكنى عامّة الناس، ومركزا عمرانيا هامًا، إلّا مع القرن السابع عشر بتزامن مع وصول البايات المراديين إلى الحكم. وخلال هذه المرحلة، لم يتخلّى الحكّام الجدد عن باردو كمقرّ للحكم، فاختارها حمودة باشا المرادي مقرًا للسكنى والحكم. وظلت منطقة باردو إلى حدود سنة إقرار الحماية الفرنسية بتونس (1881) مقرًا للحكم. وقد أنشأ المراديون عدّة سواني بباردو مثل "سانية البوري"، و"سانية باردو" و"سانية القفصي". ثم اعتمد الحكّام على تقنية الوقف ضمانة لحماية ديمومة هذه السّواني، وذلك باعتبارهم أهم "مالك عقاري" بجهة باردو. وإلى حدود الفترة المرادية خلت منطقة باردو من المنشآت العامة مثل الحّمات والأسواق والحوانيت؛ فكانت المنطقة إقامة ملكية بامتياز. وجمعت السّواني منذئذ بين الأعمال الفلاحية وإنشاء العناصر المعماريّة.

وشهدت منطقة باردو خلال الفترة الحسينية (بداية من سنة 1705) تطورا ملحوظا على مستوى التعمير بإنشاء القصور والسواني، خاصة وأنها ظلت مكانا محوريا للممارسة الحكم من قبل السلطة وأعوانها وأعيان مدينة تونس. وبقيت أراضي جهة باردو محل رهان بين الفاعلين الاجتماعيين سواء من خلال الأحباس الخاصة والعامّة أو الهبة أو الاحسان أو الإرث، وأيضا عبر تقنية المعاوضة التي سمحت للعائلة الحسينية بتملك معظم سواني وأراضي الجهة. واختار حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية الاستقرار في سانية باردو والابتعاد عن ازدحام وضيق قصبة الحاضرة. وظلت السواني تمثل خلال هذه الفترة الوحدات العمرانية الأهم، والمكون الأساسي للنسيج العمراني، وفي مقدمتها سانية باردو.

شهدت منطقة باردو بداية من الفترة الاستعمارية (1881) تحولات عمرانية مهمة؛ إذ حرصت السلطات الفرنسية على رسم خرائط دقيقة للجهة، والبحث في وضعياتها العقارية وطبيعة المالكين وهويتهم. كما عملت على إعادة تهيئة المنطقة وفق أساليب جديدة أسهمت في إعادة تشكيل ملامح المنطقة عمرانياً وطبيعياً. وبدأت السلطات الاستعمارية اشتغالها على الجهة بتأسيس الدائرة البلدية بباردو في 8 ماي 1909.

نلاحظ إذن انبعاث منطق جديد للمأسسة بدأ مع عهد الحماية الفرنسية بتونس، فقد شجعت هذه الإجراءات السكان على الاستيطان في المقاسم العقارية المجهزة بالمرافق المهمة والطرق الرئيسية التي اشغلت عليها الدائرة البلدية بباردو بعد تأسيسها. وترتبت عن توسع الدائرة البلدية عدّة نتائج أبرزها أن سانية باردو، وهي أهم سواني الجهة، لم تعد نواة التوسع العمراني للجهة. وعموما تميّزت جهة باردو في الفترة الاستعمارية بالتوسع العمراني، كما تعرّضت معظم سواني الجهة إلى عمليات تقسيم عديدة من أجل التهيئة العمرانية وبيع المقاسم. وبحكم أهمية جهة باردو، فإنها قد أصبحت محل رهانات عقارية كبيرة بين الفاعلين الاجتماعيين.

وفي القسم الثاني من العمل الذي حمل عنوان: "الخصائص المعمارية لقصور جهة باردو خلال الفترة الحسينية"، انتقلت الباحثة بية العبيدي من مجال الدراسات العقارية إلى دراسة تاريخ العمارة وتقنياتها. وقد استفادت البلاد التونسية من تراكمات حضارية عديدة انعكست مباشرة على طبيعة التقنيات والمهارات المعمارية، حيث تنوّعت العمارة بين الخصائص الأندلسية والعثمانية والفرنسية وغيرها.

واستفادت منطقة باردو، وخاصة قصورها، من هذا الموروث الحضاري، حيث أحصت الباحثة 10 قصور في جهة باردو، بُنيت في تواريخ مختلفة بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر، فكان قصر باردو أهمّها، إذ تمّ إنشائه في القرن الخامس عشر من الدولة الحفصية، وأصبح مقرّاً للسلطة الحاكمة في البلاد التونسية. واحتوى هذا القصر على مجموعة مهمّة من المباني والمنازل والبساتين والحدائق، فضلاً عن تميّزه بتقنيات معمارية وفنية متنوّعة. ولم يكن قصر باردو وحدة معمارية متجانسة فقط، بل احتوى أيضاً على إضافات عديدة ومتنوّعة عبر فترات تاريخية متعدّدة؛ فقد اشتمل على نوافير وبرك ماء ونقوشٍ جصيّة، وكان مزداناً بالرخام الإيطالي. ثم أضاف حكّام البلاد التونسية طيلة الفترة المرادية والحسنية عدّة عناصر وتجديدات معمارية مثل جامع الخطبة الذي أنشأه حسين بن علي (1705-1735) إلى جانب بناء السوق والحمام والفندق والمحكمة ودار خزن دار. وقد سعى خلفاء حسين باي إلى ترك بصماتهم المعمارية في جهة باردو عموماً، وقصر باردو تخصيصاً باعتباره مقرّ الحكم والسكنى. وفي هذا الاتجاه، قام علي باشا (1735-1756) بمشروع كبير لتجديد قصر باردو وتوسيعته مستعيناً بعدد مهمّ من الحرفيين. وتبرز لنا بوضوح الأهمية المركزية التي أصبح يحتلّها قصر باردو في سياسة حكم الإيالة التونسية من خلال الإجراءات التعميرية التي حرص على إنشائها علي باي؛ فقد نقل دار البارود مثلاً من مدينة تونس إلى باردو. كما يبرز لنا وعي علي باي بتخليد اسمه بإنشاء معالم معمارية مهمّة مثل "الصّرح العظيم بباردو المعروف بالبرج". وظلّت المنشآت المعمارية تتزايد في قصر باردو وصولاً إلى محمد باي (1855-1859) والصادق باي (1859-1882)، أي قبيل بداية عهد الحماية الفرنسية بتونس، إذ بُنيت في عهدها "السرايا" التي عدّت أهمّ أجنحة القصر الجديدة. وبرزت خلال هذه الفترة تحولات مهمّة على مستوى الذوق المعماري، فسجّلت الباحثة إنشاء "قاعة الموسيقى أو بيت العوادة"، و"غرفة الطعام أو بيت الفطور". وتعدّدت الزيادات المعمارية مع تعاقب بايات تونس، حيث ازدحم القصر بالوحدات المعمارية، سواء بهدف إبراز هيبة وقوّة السلطة، أو من أجل استمالة الأتباع وأعوان الدولة والأعيان بتخصيص إقامات ووحدات سكنية لإيوائهم. ولم تغفل العبيدي عن وضع الممارسات التعميرية ضمن إطار ثقافتها المادية، إذ سجّلت تعدّد تقنيات البناء وأدواته، مثل الاستعمال المكثّف لمادّة الرّخام بأنواعها، والجليز، والأدهان المتنوّعة، والآجر، ونقش الحديدية، والخشب، والحجارة، والقرميد. كما حفلت هذه المنشآت المعمارية بمجموعة هامة من تقنيات البناء الأندلسية والعثمانية

والإيطاليّة وطراز "الركوكو" مثل الأقواس المختلفة والتيجان والمشربّيات. وما نلاحظه هنا هو تشابك وتجاور الأنماط والتقنيات الفنية وتنوّع الأدوات والممارسات والمهارات في المنشآت المعماريّة لجهة باردو.

ومن زاوية أخرى، بيّنت المؤلّفة مستويات الشراء الحضاري والمعماري لأبنية جهة باردو خلال الفترة قيد الدرس؛ فمن خلال نموذج سانية "البرطال الصغير" تبرز أهميّة تأثير ظرفيّة نهاية القرن التاسع عشر في الأنشطة المعماريّة، إذ طغت الزخرفة الأوروپيّة على الأبنية، بدليل انتشار الأسقف الملوّنة والبلاط الخزفي الإيطالي، والخشب المذهب، فضلا عن الاهتمام بتوظيف تقنية "الفريسكو" في الزخرفة.

وبدأ قصر باردو في الانحدار عمراّنيا قبيل عهد الحماية الفرنسيّة بتونس (1881)، إذ بدأت تبرز تمظهرات الخراب على بعض الوحدات المعماريّة؛ فبعد أن كان القصر مكانا ومصدرا للسلطة والحكم ومقرا لإقامة العائلة الحسينيّة، أصبح خلال الفترة الاستعماريّة في ملك الدولة وتحت تصرّف المقيم العام الفرنسي، الذي اختار توظيف أبنيته لخدمة مصالح الإدارة الاستعماريّة. ومثال ذلك ترميم سجن باردو (الزندانة) وتوسيعه، كما حاولت الإدارة الاستعماريّة هدم القصر وأبنيته الملحقة به، رغم رفض الباي وإدارة الأوقاف، حتى تتمكن من استغلال الحجارة والرّكام والمواد الصلبة في مشاريعها من قبيل بناء ميناء تونس، وتخصيص أرضه لأهداف متنوّعة مثل بناء سجن مدني، وبيع البقع الأرضية للعموم. وقد أقامت الإدارة الفرنسيّة عدّة حظائر للبناء في قصر باردو ومحيطه، وتمّ هدم عدد كبير من دور الأمراء و"الحوانيت" ومنشآت معماريّة أخرى مثل الحمام. وأسهم التسرّع في عمليّات الهدم في إلحاق أضرار جسيمة بأجزاء كبيرة من القصر وتغيير بعض زخارفه الفنيّة وطمس أخرى. كما تغيّرت وظيفة بعض ملحقات قصر باردو مثل تحويل سراية محمد باي إلى متحف.

وبيّنت الباحثة بوضوح التحوّلات العميقة التي عرفها قصر باردو في الفترة الاستعماريّة، ويعدّ جهل الإدارة الاستعماريّة بالعمق الرمزي والتاريخي لمنطقة باردو من أهمّ أسباب الإضرار بالموروث المعماري للبلاد التونسيّة، هذا إلى جانب دور الممارسات الاستعماريّة ذات الطابع الوظيفي أساسا، فقد نُظِر لمنطقة باردو كخزان للأراضي التي يمكن إعادة تسويقها وبيعها وإعادة تنظيم مجالها حسب الحاجة، إلى جانب اعتبار المنطقة احتياطا مناسباً للحجارة ومواد بناء ثمينة يجب إعادة تدويرها وتوظيفها في الحظائر

العديدة التي فتحتها الإدارة الاستعمارية في مدينة تونس وأهمّها الميناء، باعتباره يلعب دور المحور ذو الوظيفة الحيوية للميتروبول سواء من أجل التصدير أو التوريد. وبهذا تحوّلت منطقة باردو من مكان لإنتاج السلطة ومستقرّها قبل وصول الاستعمار، إلى منطقة خاضعة لرهانات الإقامة العامّة، فتضّرر موروثها المعماري كثيرا في خضمّ هذه الرهانات. وقد أبرزت بيّة العبيدي مدى درجة تأثر وحدات معمارية أخرى، إلى جانب قصر باردو، بتغيّر الظرفيات الاقتصادية والسياسية مثل حالة "برج القفصي" الذي يعود تأسيسه إلى سنة 1658، والقصر السعيد القائم بجانب سانية باردو، والذي تحوّل في زمن الحماية إلى ثكنة عسكريّة.

ومن خلال هذه النماذج، تبين لنا الباحثة الرهانات الكبيرة المحيطة بهذه العقارات، وخاصّة منها مناورات و التملك استراتيجياتها التي اتّبعتها الفاعل الاجتماعي. لقد كانت قصور جهة باردو وسوانيا قبل عهد الحماية الفرنسية تحت ملكية العائلة الحسينية وأعوان الدولة، إلا أنّ حدث الاستعمار أسس لتغيّرات حاسمة حيث انتقلت أغلب الملكيات إلى أيادي فاعلين اجتماعيين جدد مثل الفرنسيين، وأملاك الدولة.

لقد توفقت المؤلفة بيّة العبيدي من خلال هذا التأليف في موضوعة جهة باردو ضمن سيرورتها التاريخية ومميّزاتها المعمارية والأثرية والفنية. كما بيّنت بوضوح علاقة هذه الجهة بالظرفيات والتحوّلات السياسية، وانعكاس ذلك على الموروث المعماري. لقد ترك مجمل الفاعلين الاجتماعيين، سواء الحفصيين أو المراديين أو الحسينيين أو الفرنسيين، بصمات وملسات واضحة على الجهة وعمرانها خاصّة القصور والسواني.

ولا يسعنا في الأخير إلا التأكيد على أهميّة هذه الدراسة على مستوى التاريخ والموروث المعماري. لقد أفلحت الباحثة في الجمع بين المصادر الأرشيفية والمصادر والمراجع المنشورة والعمل الميداني، كما فصلت في هواجس التملك التي أحاطت بجهة باردو، ونجحت في رسم خرائط النفوذ والجاه وتنوّع استراتيجيات الملكية المتعاقبة على البلاد التونسية من خلال دراسة تاريخ الجهة والمؤثرات التي عايشتها، وتغيّر موازين القوى، وتحوّلات شبكات النفوذ.

والملاحظ أيضا أن الدراسة تمكنت من المرواحة بين التاريخ الاجتماعي والسياسي والعقاري من جهة، وبين علم الآثار وتاريخ الفنّ من جهة أخرى. وأيضا بين التاريخ الممتد والحديثي، وهي دراسة تجمع وتراوح بين البنية والظرف. وهي بذلك، تفتح آفاقا

معرفة مهمة في ميادين التاريخ العقاري والموروث المعماري عموما، وآفاقا منهجية ملححة من خلال التأكيد على أهمية الدراسات المرتكزة على تداخل الاختصاصات، فضلا عن كونه عملا يفتح شهية القارئ من أجل مزيد الاطلاع على مواضيع مهمة بقيت مجهولة لمدة طويلة.

محمد البشير رازقي

سلك الدكتوراه، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، تونس